المورد

عدد خاص
أبو الطيب المتنبي

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٩٧٧

من قراءة في شعر أبي الطيب

بقلم الدكتور
ابراهيم السامرائي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لقد اصاب ابن رشيق القيرواني كل الاصابة حين قال في المتنبي : « ملأ الدنيا وشغل الناس ». ولقد ذاع اسمه في البلاد وسار شعره سيرورة لم تعرف لشاعر غيره ، واهتم العلماء بديوانه فشرحوه فكان من ذلك شروح تجاوزت الاربعين بعضها شملت شعره كله وبعضها انعقدت على المشكل من شعره . قال ابو عبدالله ياقوت الرومي : ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ، ولا في الاسلام شرح هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول شعر في أمثال أو طرف أو غرائب على السنة الادباء في نظم أو نثر اكثر من شعر المتنبي . قال : وكان ابو العلاء المعري ـ رحمه الله ـ اذا ذكر الشعراء يقول : قال ابو نواس كذا قال البحتري ، كذا قال ابو تمام كذا ، فاذا ذكر المتنبي قال : قال الشاعر كذا فقيل له يوما : قد اسرفت في وصفك المتنبي اليس هو القائل :

بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها
وقوف شحيح ضاع في التربِ خاتَمُه

كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ قال : اربعين يوما ، فقيل له : ومن اين لك ذلك ؟ فقال : سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ وقف على طلبه الخاتم اربعين يوما ، فقيل له : ومن اين تعلم انه بخيل قال من قوله تعالى حكاية عنه : « هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي » وما عليه ان يَهَبَ الله لعباده اضعاف ملكه .

ولقد اردت مما اثر في الخبر ان اقول : ان ذاك الذي « ملأ الدنيا وشغل الناس » كان النقاد منه بين معجب به ، لهج بشعره ، مؤثر اياه على غيره من الشعراء ، وبين قادح له منكر لاحسانه واقف على سقطاته ومساوئه مما خيل اليه انه « مساوىء » و « سقطات » .

ولكن هذا النفر الذي تصدّى لشعر ابي الطيب بالنقد والتجريح قد جار في الحكم وتعسف في الراي فظلم الادب وما ارضى النقد ، وسلم شعر ابي الطيب ماليء الدنيا وشاغل الناس . قلت : لقد ظلم هذا النفر الادب وتحامل على شاعر العربية ، والا الم يكن في شعر الجاهليين والاسلاميين ومن عاصر المتنبي نفسه من المآخذ التي اربت على ما في شعر ابي الطيب مما اريد ان يكون معايب . وقف النقاد المتقدمون على اغاليط الشعراء فاحصوا من ذلك قدرا سجل في شعر امرىء القيس وشعر لبيد وشعر زهير وغيرهم من الجاهليين ، كما وقفوا على اغاليط الشعراء الاسلاميين . ولم تقدح تلك الاغاليط في شعر هؤلاء ، ولم يتجاوز النقاد هذا الحد في الوقوف على الاغاليط . اريد ان اقول : انهم تحاملوا على المتنبي مسوقين بعوامل عدة منها انه رزق الشهرة وحظي بالمكان العلي وانه جوّد في كثير من شعره حتى سار سيرورة الامثال . ثم ان غير واحد من الرؤساء قد دفع هؤلاء الى ان يعرضوا لشعره بالنقد والتجريح ، ومن غير شك ان الوزير المهلبي والصاحب بن عباد قد شاركا في دفع النقاد والشعراء الى النيل من المتنبي والحط من شعره وتهجينه وبيان سقطاته ومساوئه . وقد اشار المتنبي الى هذا فقال :

ارى المتشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا

وهو القائل :

اني كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول

لقد كان حقا اعظم من ان تناله جماعة دفعوا دفعا الى النيل فتحاملوا وتجاوزوا ولم يتاتّ لهم ما ارادوا وظل شعره كما قال :

وما الدهر الامن رواة فضائدي
اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

وقد احسن القاضي عبدالعزيز الجرجاني في « الوساطة » كل الاحسان حين اشار الى تحامل النقاد الذين نظروا في « اغاليط » او « مآخذ » مما عدوه « مساوىء » و « سقطات » ولم تكن في حقيقة الامر الاهنوات لا يمكن ان تغض من قدره وتنال من شعره فقال :

« ولو انصف اصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم احق بالاستكثار ، وصغيرهم اولى بالاكبار ، لان احدهم يقف محصورا بين لفظ قد ضيق مجاله ، وحذف اكثره ، وقل عدده ، وحظر معظمه . ومعان قد اخذ عفوها . وسبق الى جيدها ، فافكاره تنبث في كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فان وافق بعض ما قيل ، او اجتاز منه بابعد طرف قيل : سرق بيت فلان ، واغار على قول فلان . ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ، ولا مر بخلده ، كان التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن .....

ثم يمضي قائلا : فلا تشتغلن بهذه الطائفة ما دمت تنظر بين المتنبي واهل عصره واخر المنازعة في هذا الراي وان كان الخلاف الاكبر ، فان لكل مقام مقالا . وانما خصمك الالد ، ومخالفك المعاند الذي صمدت لمحاكمته ، وبدات بمنازعته ومحاجته من استحسن رايك في انصاف شاعر ، ثم الزمك الحيف على غيره ، وساعدك على تقديم رجل ، ثم كلفك تاخير مثله ، فهو يسابقك الى مدح ابي تمام والبحتري ، ويسوغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي ، حتى اذا ذكرت ابا الطيب ببعض فضائله ، واسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ونفر نفار المضيم ، فغض طرفه وثنى عطفه ، وصعر خده واخذته العزة بالاثم ...

ثم يقول :

خبرني عمن تغطم من اوائل الشعراء ، ومن تفتتح به طبقات المحدثين ، هل خلص لك شعر احدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ؟ فان ادعيت ذلك وجدت العيان حجيجك ، والمشاهدة خصمك ، وعدنا بك الى اضعاف ما صدرنا به مخاطبتك ، واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها ما يجول بينك وبين دعواك .....

فابو الطيب واحد من الجملة فكيف خص بالظلم من بينها »(١) .

وانت واجد من امثلة هذا الظلم في كل كتاب وصل الينا في موضوع « المساوىء » و « السرقات » و « الاغاليط » ومن هذه :

١ ــ الابانة عن سرقات المتنبي لابي سعد محمد ابن احمد العميدي المتوفى سنة ٤٣٣ هـ .

٢ ــ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي لابي القاسم اسماعيل بن عباد الشهير بالصاحب المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

٣ ــ سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي وهو على الراجح صاحب «الذخيرة» المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

٤ ــ الرسالة الموضحة للحاتمي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ الذي ابتدأ النقد على المتنبي في الرسالة عن مناظرته ، وابتدأ بيان مآخذ المتنبي في «الرسالة الحاتمية » المطبوعة بالكاثوليكية سنة ١٩٣١ م في بيروت .

وانت واجد ايضا شيئا من هذا الباب في كتاب « الفتح على ابي الفتح »(٢) لمحمد بن احمد بن فورجة المتوفى في اواسط القرن الخامس الهجري . وله ايضا « التجني على ابن جني » وهو يرد في الكتابين على ابي الفتح عثمان بن جني في شرحه لديوان المتنبي المسمى بـ « الفسر » .

ونحن واجدون ايضا شيئا مما قيل في « المساوىء » في كتاب « الوساطة » لعبدالعزيز الجرجاني وفيما كتبه الثعالبي في « اليتيمة »(٣) وان كان الجرجاني والثعالبي قد تكلما كثيرا على احسان المتنبي في شعره وقد ردا على ما ادعي من «مساوئه» و « اغاليطه » .

وقد وصل الينا شيء ، مما قيل في المتنبي مما

---

(١) الجرجاني : الوساطة (طبعة دار احياء الكتب العربية القاهرة) ص ٥٢ ــ ٥٣ .
(٢) من مطبوعات وزارة الاعلام العراقية .
(٣) اليتيمة ٢٦/١ ــ ٢٠٨ (ط . محمد محيي الدين عبدالحميد) .

صنفه السابقون بين مادح له مثن عليه وقادح له متنقص منه ومن هؤلاء :

١ ـ عبدالله بن عبدالرحمن الاصفهاني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ وكتابه « الواضح في مشكل شعر المتنبي »(٤) .

٢ ـ وللمعري الشاعر المشهور شرحان على ديوان المتنبي سمى احدهما « معجز احمد » .

٣ ـ ولعلي بن احمد الواحدي شرح للديوان (نشره فريدرخ ديتريصي في برلين سنة ١٨٦١)(٥) .

٤ ـ ولابي البقاء العكبري عبدالله بن الحسين المتوفى سنة ٦١٦ هـ شرح هو « التبيان » (ط . مصطفى الحلبي بالقاهرة ١٩٣٦ م) . وللاستاذ الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ دراسة تتصل بنسبة الكتاب الى العكبري نشرت اكثر من مرة .

٥ ـ ولابن هشام المصري صاحب «مغني اللبيب» كلام في شعر المتنبي نثره في مواضع من «المغني » .

٦ ـ وللشيخ يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ شرح هو « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » طبع على هامش « التبيان » للعكبري (القاهرة ١٣٠٨ هـ) .

ولنعرض لما سمي « سرقات المتنبي » او « مساوئه » فنجد ان في شعر المتنبي من الفرائد الخرائد ما ادعي انه مأخوذ من شعراء سبقوه كان من بينهم جماعة ممن خمل ذكرهم فلا يعرفهم الا خاصة الخاصة .

ولا بد لي ان اقول شيئا فيما سمي « السرقة الشعرية » ابعد به هذا النوع من الادب الى حد كبير ، ذلك ان كثيرا مما دعي بـ « السرق » في الشعر لم يكن في حقيقة الامر سرقا . انا اتفاق المعنى لايمكن ان يكون سطوا واخذا فقد يرد المعنى لناس كثير من الناس ممن لا يعرف احدهم الاخر ولم يقف له على اثر . افلا يجوز ان يتفق المعنى للعربي والعجمي ، فهل يقال ان احدهم اخذ عن الاخر .

لا اريد ان انكر « الاخذ » انكارا مطلقا متعللا بمقولة الجاحظ « ان المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء » ولكني اسعى الى ان اقول : ان اهل النقد افرطوا في الكلام على السرق فذهبوا مذاهب بعيدة وصنفوا السرق اصنافا عدة(٦) . ولا استطيع ان اعزو الى السرق ما سموه « وقوع الحافر على الحافر » كقول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لا تهلك اسى وتجمل

وقول طرفة بن العبد :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لا تهلك اسى وتجلد

اليس هذا مما عرض للرواة من الخطأ والوهم؟ ولم لا يكون شيئا من ذلك وقد عرفنا ما كان من امر الشعر الجاهلي وطرائق روايته ؟

لقد قالوا ان المتنبي في قوله :

وكأنها نتجت قياما تحتهم
وكأنهم خلقوا على صهواتها

قد سطا على قول جابر بن الطائي السنبسي :

كأنهم خلقوا والخيل تحتهم
وهم اسود وفي انيابها الاجل

وقال المتنبي :

وعطاء مال لو عداه طالب
انفقته في ان يلاقي طالبا

وقالوا انه ماخوذ من قول الخبز ارزي :

وينفق امواله في طلا
ب طلابها طائعا مستديما

وقال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقالوا انه ماخوذ من قول محمد بن البيدق الشيباني :

الظلم طبعك والعفاف تكلف
والطبع اقوى والتكلف اضعف

اقول : عرف الناس شعر المتنبي ولهجوا به

(٤) من مطبوعات الدار التونسية للنشر بتحقيق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .
(٥) اعادت نشره مكتبة المثنى ببغداد بطريقة الاوفست .
(٦) انظر المثل السائر لابن الاثير .

ونسوا ما ورد قريبا منه وهذا دليل أصالة لا تنكر ، فماذا يكون السرق والاخذ وهي معان يعرفها الناس كافة ؟ الا ترى ان المعربين قد نسوا قول ابـــي العتاهية :

والحلم من خلق الكرام وكـم
بـرق به يتســـهل الصعـب

حين اخذهم ابو الطيب ببيته الخالد :

من الحلم ان تستعمل الجهل دونه
اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

ثم كيف يكون مطلع ابي الطيب العامر :

لك يا منازل في القلوب منازل
اقفرت انت وهن منك اواهل

مأخوذا من قول المعرج الرقي :

يا محل الارام والعين اهـــلا
لك في القلب منزل ومحـــل

ان هذا الشيء يأباه اهل النصفة من النقاد .

وما زالت دنيا الناس الى يومنا هـذا تردد قول ابي الطيب :

ذل من يغبط الذليـــل بعيش
رب عيش اخف منـه الحمـام
من يهن يسهل الهوان عليـه
ما لجـــرح بميت ايـــلام

ان هذين البيتين من بليغ الشعر وعجيبـــه فكيف يتاني للعاقل الاريب ان يقرنهما ببيتي ابـي الهندي الرياحي :

لا تغبطن ذليـــلا في معيشـــته
فالموت اهون من عيش على مضض
لا يوجع الصخر نحت المرء جانبه
ولا من الـــذل ذولب بممتعض

ثم لا يكتفي بهذا بل يقول بالاخذ والسرق ، هذا شيء لا سبيل الى الاخذ به . ويبقى ابو الطيب على حق حين يقول :

ولى فيك ما لم يقـل قائـــل
وما لم يسر قمـر حيث سارا
وعندي لك الشـرد السـائرا
ت لايختصصن من الارض دارا
اذا سرن من مقـــول مـــرة
وثبن الجبال وخضن البحـارا

ثم انه على حق حين قال :

واذا أتتك مـذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي باني كامـل

ثم ماذا في هذه «المصنفات» الى انصرفت الى « مساوئه » و « سرقاته » و « اغالطيه » ؟ هي من هذا الباب الذي توسع فيه افتئاتاً وجورا فتنكب اصحابها عن العلم وجاروا عن القصد واقترفـوا الخطا ، واذا عرفنا ان الحاتمي والعميدي قد دفعوا الى هذا دفعا استجابة لفلان « المهلبي » وفـلان « الصاحب » ادركنا قيمة العمل . ومما يؤيد هذا ان الحاتمي مثلا عاد في آخر كتابه(٧) الذي ملأه بما ادعى انه مساوىء وسرق يحكي شيئا من احسان المتنبي في معانيه ومبانيه .

ولعله بسبب ذلك كتب رسالته الثانية وهي الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكم(٨) . فقال فيها :

« والذي بعثني على تأليف هذه الالفاظ منافرة خصومي فيه (اي المتنبي) لما رايت من نفور عقولهم عنه وتصغيرهم لقدره » .

وقال ايضا :

« وكنت قد بلغت شفاء نفسي منه وعلمت ان الزيادة على الحد الذي انتهيت اليه ضرب من البغي لااراه في مذهبي ، ورأيت له حق القدمة في صناعته، فطاطأت له كتفي واستانفت جميلا من وصفه»(٩) .

عرض الحاتمي في هذه الرسالة لطرف مـــن شعر المتنبي الذي جنح فيه الى غرض فلســـفي ومعنى منطقي ، فقال : « فان كان ذلك منه عـن فحص ونظر وبحث فقد اغرق في درس العلوم ، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد علـى الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة ، وهو في الحالتين على غاية من الفضل ، وسبيل نهاية من النبل ، وقد اوردت من ذلك ما يستدل به عـلى فضله واغراقه في طلب الحكمة مما اتى في شـعره موافقا لقول ارسطاطاليس في حكمته »(١٠) .

وكأن الحاتمي ادرك ان الحكمة في شـــعر المتنبي شيء من أصالته التي غلب بها على غيره مـن

---

(٧) الرسالة الموضحة (بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ط . بيروت) .
(٨) الرسالة الحاتمية (بتحقيق فؤاد افرام البستاني . ط . بيروت) .
(٩) المصدر السابق ص ١٣ .

الشعراء فالتمس لها مصدرا من مصادر الحكمة ليظهر اصالتها ان ثبت ان المتنبي ثقف العلم الفلسفي .

ولنعرض لشيء من ذلك مما جاء في «الرسالة»

قال ارسطو :

« واذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغها »

وقال المتنبي :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الاجسام

قال ارسطو :

« روم نقل الطباع عن ذوي الاطماع شديد الامتناع »

وقال المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل

قال ارسطو :

« من استمرت عليه الحوادث لم يالم بحلولها»

وقال المتنبي :

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا
فأهون ما يمر به الوحول

قال ارسطو :

« الزمان ينشي ويلاشي ففناء كل قوم سبب لكون قوم آخرين »

وقال المتنبي :

بذا قضت الايام ما بين اهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

ويحسن ان اعرض لنمط آخر من هذه الكتب التي نالت من شعر المتنبي فاجد بين يدي «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي »(١٠) للصاحب بن عباد وفيه يقول :

« ومن شعره الذي يتباهى به بالسلاسه وخلوه من الشراسة الموجودة في طبعه بيت رقية العقرب اقرب الى الافهام منه هو :

لحن من ضايق الزمان له
فيك وخانته قربك الايام

فان قوله « له فيك » لو وقع في عبارات الجنيد لنازعته المتصوفة دهرا بعيدا . ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل على فساد الحس ، وسوء أدب النفس ، فما ظنك بمن يخاطب ملكا في رزية أمه بقوله :

رواق العز حولك مسبطر
وملك علي ابنك في كمال

ولعل لفظة الاسبطرار في مراثي النساء من الخذلان الصفيق الدقيق المغير . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له انها من شعره بمثابة « وقيل يا ارض ابلعي ماءك » من القرآن ، و « اصدع بما تؤمر » من الفرقان »(١١) .

اقول : ان هذه التعليقات لا يمكن ان تكون نقدا قائما على الذوق والفن .

ولنأت بشيء آخر مما في « كشف » الصاحب : قال :

« ومن عيوب قصائده التي تحير الافهام وتفوت الاوهام جمعه من الحساب ما لا يدرك بالارتماطيقي ، ولا بالاعداد الموضوعة للموسيقي قوله :

احاد أم سداس في احاد
ليبلتنا المنوطة بالتناد

وهذا كلام الجكل ورطانة الزط ، فما ظنك بممدوح قد شمر للسماح من مادحه فصك سمعه بهذه الالفاظ الملفوظة والمعاني المنبوذة ؟ فاي هزة تبقى هناك واي اريحية تثبت بهذا . ومن مساءلته للطلول البالية ، وكلامه اشد منها بلى واكثر إخلاقا :

اسائلها عن المتديريها
فما تدري ولا تذري دموعا

فان لفظة « المتديريها » لو وقعت في بحر صاف لكدرته ، أو القي ثقلها على جبل سام لهدته . . . . »(١٢) .

وكان الثعالبي في «اليتيمة» ادرك ان الصاحب ابن عباد قد ظلم المتنبي بغير حق وانه قسا في الحكم وتجاوز الحد فعرض في كتابه لقطعة من حل

(١٠) نشر غير مرة اخرها بتحقيق الشيخ محمد حسن ال ياسين (من منشورات مكتبة النهضة ببغداد) .

(١١) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ص ٥٤ .
(١٢) المصدر السابق ص ٦٢ – ٦٣ .

الصاحب وغيره نظم المتنبي واستعانتهم بالفاظه ومعانيه في الترسل فذكر من فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها عضد الدولة :

واما قلعة (كذا) فقد كانت بقية الدهر المديد ، والامل البعيد ، تعطس بانف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامح على الخطبة ، وترى ان الايام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع ، وعاهدتها على التسليم من الحوادث . فلما اتاح الله للدنيا ابن بجدتها وابا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون ما بين البحور والانهار ، وظنوا الاقدار تاتيهم على مقدار . فما لبثوا ان راوا معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث وفرصة البوائق ومجر العوالي ومجرى السوابق .

وانما الم بالفاظ بيتين لابي الطيب احدهما :

حتى اتى الدنيا ابن بجدتها
فشكا اليه السهل والجبل

والاخر :

تذكرت ما بين العذيب وبارق
مجر عوالينا ومجرى السوابق(١٣)

وفي الكتاب امثله اخرى من هذا الباب .

واخلص من هذا ان ما نسب الى ابي الطيب من المساوىء والمعايب والاغاليط ليس الا القليل ، وان ما كان من حشو هذه الكتب ان هو الا تزيد وتحامل وهو شيء عرض لكثير من الشعراء .

(١٣) اليتيمة ١٣٩/١ .

* • *